الأبعاد الثقافية في الأدبيات العلمية المقررة في التعليم الطبي الفرنكفوني

الأستاذ الدكتور أحمد بن عبد العزيز

أستاذ استشفائي جامعي في الطب الوقائي و طب المجتمع بكلية الطب بسوسة . يشرف على إدارة نظم المعلومات بالمستشفى الجامعي سهلول بسوسة .

أستاذ زائر محاضر في كليات الطب و الصيدلة و طب الآسنان بالمغرب الأقصى.

مستشار منظمة الصحة العالمية في الصحة البيئية و التعزيز الصحي.

توطئة

قام فريق من المدرّسين بكليّة الطب ابن الجزار بسوسة (تونس) بدراسة وصفية نوعية لمقررّين في علم الجراحة و علم الأشعة يدرسان منذ سنين بالكلية: الأول كتاب -علم أوصاف الأمراض الجراحية- لـ:Lucien Leger منشور بفرنسا و مقرر لطلاب السنة الثانية. و الثاني كتاب علم الأشعة وهو مؤلف محلي لأحد أساتذة الكلية، غير منشور و مبرمج لطلاب السنة الثالثة. رصد الباحثون جميع التعابير و الاستعارات و التشابيه المستعملة لوصف علامات و أعراض الأمراض الجراحية و فحوصات الأشعة. وتكفل الفريق اثر ذلك بتحليل هذه الأوصاف و تصنيفها ضمن ثلاث أقسام: محايد وعالمي المنحى، متجانس مع الثقافة العربية وأخيرا

غربي بحت. و عرض البحث نماذج من هذه المصطلحات المرتبطة بتاريخ الغرب و نمط حياته الإقتصادي "نجمة المرسيدس" و الرياضي "كرة التنس" و العسكري "ضربة الخنجر" و الديني "يد القديس المبارك". وخلص البحث إلى عدم صحة فرضية حياد اللغة و علميتها و إلى عدم قدرة الطلاب على فهم المواد المدرسة بلغة أجنبية و كذلك إلى خطورة التبشير بثقافة الغرب داخل مؤسسات التعليم الطبي العربي مما يجعل تعريب العلوم الطبية بالوطن العربي ضرورة حضارية و لازما تقنيا. ولقد نشرت منظمة الصحة العالميّة نتائج هذه الدراسة في "المجلّة الصحيّة لشرق المتوسّط" (المجلّد التاسع، العدد 3، 2003 : 431-440) مثمّنة إياه لبرهنته على أن تعليم العلوم الطبية باللغات المحلية للشعوب ضرورة بيداغوجية، لنجاعة العملية التربوية.

تمهيد

يعتبر تعليم الطب باللغات المحلية للشعوب، ليس فقط مسالة تأكيد للهوية و تعميق للذات، بل ضرورة حتمية لنجاعة العملية التربوية. إذ يسهّل ذلك، التواصل بين معلّم المواد الطبية و متعلمها من ناحية، ويربط جسور التفاهم بين المهني الصحي و مستعملي الخدمات العلاجية من ناحية أخرى. و يؤدي التواصل بين المعلم و المتعلم إلى استيعاب أعمق و أوسع للمعارف المقدمة، كما يوفر التعليم باللغة الأم فرصة أفضل لاندماج المهني في المجتمع.

لقد أكّدت عديد البحوث التربوية، أن استيعاب المعرفة أيسر تناولا و أقرب منالا، عندما يكون ذلك باستعمال اللغة الأم للمتعلم. و إضافة إلى المبرّرات البيداغوجية، يعتبر الاعتماد على اللغة المحلية للشعوب داعما لوحدتها الوطنية و رافدا لرقيّها. فلا انتماء للأمة دون رابط اللغة و لا إبداع حضاري دون تمثل للعلم باللغة الأم. و من اجل ذلك، دعت المنظمات الصحية و التربوية كمنظمة الصحة العالمية [1] و المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم [2] إلى تجنب التعليم الطبي باللغات الأجنبية. كما سعت مكاتبها بشرق المتوسّط و الوطن العربي إلى تفعيل تعريب التعليم الطبي، مستندة في ذلك إلى تشخيص سلبي للوضع التعليمي و انتظارات واعدة للتعريب.

فلقد انتهى المكتب الإقليمي لشرق المتوسط لمنظمة الصحة العالمية إلى تحديد عديد المشكلات و السلبيات في التعليم الطبي الحالي بالدول العربية، المعتمد أساسا على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، مما أعاق التنمية الصحية بدول الإقليم. أهم عناصر هذا التشخيص [1]. ارتفاع تكلفة التعليم الطبي بلغة أجنبية، ضعف مستوى الطالب في اللغات الأجنبية، اغتراب المتعلمين عن خصوصيات مجتمعاتهم، تعميق الفجوة بين الطبيب و المجتمع و إضعاف دور اللغة الأم في تنمية المدارك و تطوير العلوم. و ينتظر دعاة تعريب الطب أن يعمل تعريب التعليم على [2] تحقيق التوازن بين الفكر واللسان و بين المعرفة و اللغة، و تحقيق التفاهم و الانسجام بين أفراد المجتمع، و الاستفادة من العلوم و التقنيات المتوافرة لدى كافة الأمم، و الحد من التبعية الثقافية الناجمة عن التقيد بلغة واحدة، و تحقيق ديمقراطية التعليم.

الإشكالية

موازنة مع الاغتراب العام الذي تلقاه اللغة العربية في أوطانها، وبرغم الأنشطة والفعاليات العديدة التي قادتها عديد المنظمات الأكاديمية والتجمعات المهنية لإنجاز مهمة تعريب التعليم الطبي، فمازالت الكليات الطبية المدرّسة بالعربية نادرة داخل أرجاء الوطن العربي [3]. و تلقى هذه الدعوة معارضة كبيرة من طرف المدرّسين خاصة بالمغرب الكبير لاعتقادهم بعجز اللغة العربية عن البيان عن مادة علمية شاسعة بمصطلحات موضوعية دقيقة، وان اللغة الأجنبيّة كالفرنسية مثلا، المستعملة حاليا، اقدر على البلاغ الطبي بالحياد العلمي و النزاهة المنهجية المنشودتين في كل عملية تعليمية. و رصدت بحوث التشريح الثقافي للأدبيات الطبية المقرّرة بالتعليم الجامعي التونسي مضامين حضارية خفية و جلية، متعارضة مع النموذج الحياتي الوطني ومصادمة في بعض الأحيان لعقائد و قيم الأمة، مما يفنّد بالتالي نظريّة الحياد اللغوي المزعوم.

المناقشة

يعتبر التجاء مدرّس العلوم الطبية إلى الاستعارات و التشابيه لوصف الأعراض و العلامات ونتائج الكشوف و التحاليل، ضرورة بيداغوجية و ذلك لعاملين اثنين : الأول، إن المصطلحات المستعملة في العلوم و التقنيات غير معبرة بذاتها. فهي إما مشتقة عادة من اللاتينية التي لا يعرفها الآن جل الغربيين أو موضوعة من طرف المعجميين. فيؤدي جفاف المصطلح إلى عدم قدرة المتعلم على تمثل أبعاده أو استيعاب إيحاءاته. و يسهل بالتالي الاستعانة بالوصف الأدبي، فهم المصطلح. الثاني، إن استعمال الصور المألوفة في الفضاء الثقافي و الاجتماعي للمتعلم يساعد كثيرا على مذاكرة المفهوم و استحضاره لمدة أطول، إضافة إلى اختزال الحاجز الابستيمولوجي بين تجريد الوصف عند المتعلم و مادية الموصوف عند المعلم.

إن استعمال التعابير الوصفية في الأدبيات التعليمية الطبية ليست بريئة و محايدة تماما. فالتشابيه المستمدة من الفضاء الثقافي لأمة ما، لا تملك القدرة على تحقيق مبررات إنشائها في مجتمعات متغايرة الثقافة. إذ الثقافة هي النسيج الحي الرابط بين أفراد المجتمع، فلكل أمة ثقافتها، بل لكل مجتمع نمطه الثقافي المتميز.

خلافا لما يعتقده الكثيرون، فان الأدبيات الطبية الفرنسية مثلا مشحونة بثقافة الغرب و تاريخه و أسلوب حياته في جدّه ولهوه، في دينه ودنياه، وفي أكله و شربه. أغلب هذه التعابير لا يتجانس مع وجدان الطالب العربي و إطاره الثقافي المرجعي. و تروّج هذه الأدبيات في المدارج و قاعات الدروس المسيرة، من طرف أساتذة محلين على أنها علم خالص. بل تستعمل الصور التعبدية المحلية المقدسة لوصف أمراض بتعابير تحريفية تجرئ المتعلم على اختراق المقدّس لديه و تحقّره في نظره. حتى الجانب المحايد من التعابير المستعملة، فيتميز بغياب الجمالية في اختياره و تأثرها كثيرا بفضاء البحث العلمي المخبري كتعابير"أمعاء الدجاجة" و "أذني الكلب" كما تتميز بغربتها عن المجتمع المعاصر للمتعلم، حتى وان كان غربيا كتعبير"فوهة البندقية". كما تجدر الملاحظة إلى تفجر العنف في عديد التعابير الموحية بأشكال التعذيب –"تبول أو مت" – أو أدوات الحروب "الخناجر".

و لهذه التشابيه انعكاسات عديدة على معارف و وجدان و ذات المتعلم بالكليات الطبية المغاربيّة المستعملة للغة الفرنسية. فالتعابير المشحونة بعبق ثقافي – ثقافة الآخر– لا تفهم البتة في كثير من الأحيان لضعف المستوى اللغوي الأجنبي للطلاب. فتفقد هذه التعابير مبرّرات وجودها و استمرارها، و ينقطع التواصل بين معلم الموصوف و متعلم

الوصف. و إن حدث أن فهمت هذه المصطلحات فهي لا تستوعب جيدا لعدم قدرة المتعلم على تمثل مرجعيتها التاريخية و الثقافية. فالطلبة الفرنسيون قد لا يقدرون هم أنفسهم على استيعابها لارتباطها بنمط حياة المجتمعات الأوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. و إن حدث أن تم استيعاب هذه المصطلحات، فهي سهلة النسيان، لا تستذكر إلا بصعوبة لعدم تطابق صورها مع الحياة المعيشة. وان تم استحضار هذه التشابيه فهي معمّقة لاغتراب الذات و تحقيرها لا محالة، داعمة بذلك عديد الوسائل الأخرى الموجهة خاصة للنخب المتعلّمة والموعودة بالترف في المدن.

أما القسم المحايد من التشابيه، فقد يفسد الحسّ الجمالي للمتعلم ويبلّد ذوقه الفني، فتتحجر النفس و تتكلس. و تكمن خطورة ذلك لطالب الطب أن ينقص إحساسه بمعاناة المرضى و يضمر تفاعله مع آلامهم ويقل تفهمه لصعوبات تكيفهم مع المشكل الصحي من ناحية و مع مجتمعهم من ناحية أخرى. و تعمل هذه التعابير المحايدة و المستوحاة من الفضاء المخبري على تقوقع الذات وانعزالها. فالحياة أوسع من ان تختزل في دائرة المخبر، والتواصل بين الطبيب والمجتمع يحتاج إلى فهم الطبيب لحياة المجتمع اكثر مما يحتاج لفهم المجتمع لماهيته . وهكذا تضرب الانعكاسات السلبية للتعابير المصنفة – محايدة – الأهداف البيداغوجية المنشودة.

انه لا بديل عن تبني التعليم الطبي باللغة الأم، باعتباره الشرط الوحيد لتحقيق المصالحة بين المعلم والمتعلم من ناحية، إذ اللغة وعاء المعرفة ووسيلة التربية وأداة التواصل، و المصالحة بين المتعلم والناس من ناحية أخرى، إذ إن اللغة هي النسيج الثقافي الحيّ للمجتمع. كما نحذّر بالتالي من خطر الترجمة الحرفية للأدبيات الطبية الأجنبية اثر تبنّي خيار التعريب. فالترجمة نقل للكلام من لغة لأخرى أما التعريب فهو نقل للمفاهيم من ثقافة ما إلى ثقافة العرب بكل تجانس و انسجام معها. إن الترجمة الحرفية هي كالتعليم باللغات الأجنبية مكرّسة لثقافة الآخر، مدمرة لثقافة الذات.

الخاتمة

اللغة ليست وعاءا حياديا بل هي ناقلة عبر تعابيرها لمضامين ثقافية . إن استمرار التدريس باللغات الأجنبية هو تعميق للإلحاق الحضاري و الاغتراب القيمي للطلاب، مما يزيدهم استنقاصا لهويتهم و انبهارا بالغرب. إن تواصل الاعتماد الكلي على اللغة الأجنبية في الكليات الطبية بالوطن العربي، تكريس للفصام الثقافي داخل الأمة، إذ أن العقل والوجدان لا يتوحّدان إلا عندما تكون لغة الطبّ هي لغة الثقافة. إن تعريب العلوم الطبية ليس فقط ضرورة أخلاقية و حضارية بل طارئ تقني لتعليم طبي ناجع ومفيد للشعوب العربية.

المراجع

1. منظمة الصحة العالمية، تعليم العلوم الصحية و العالمية باللغة العربية. المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، 1991.
2. المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، نحو خطة تنفيذية واقعية لتعريب التعليم الطبي في الوطن العربي، ماي 1987.
3. قاسم سارة، استعمال اللغات الوطنية في مجالات الإعلام و التعليم والتثقيف الصحي، المجلة الصحية لشرق المتوسط، ملحق المجلد الرابع ، 1988 – ص 175 – 197.
4. أحمد بن عبد العزيز،مصادر التشبيه في مصطلحات مقرري "العلامات الجراحيّة" و "العلامات الشعاعيّة" و ملاءمتها للبيئة الثقافيّة العربيّة بتونس. المجلّة الصحيّة لشرق المتوسط 2003 :9 (3) :431 40- .